قلق الهوية في المسرح الناطق بالأمازيغية

المسرح الأمازيغي الجزائري: المسار المؤلم والبحث عن الذات الثقافية

منذ الاعتراف باللغة الأمازيغية كلغة وطنية، ومن ثم كلغة رسمية إلى جانب اللغة العربية في الجزائر انطلقت مساعي الفنانين والكتاب الأمازيغ الجزائريين من أجل تطوير مختلف أشكال التعبير الثقافي والفني الأمازيغي وفي مقدمتها المسرح، ولا يعني هذا أن هذا الشكل من التعبير الفني ليست له جذور تاريخية ضاربة في القدم بل إن بعض مؤرخي الثقافة الأمازيغية الجزائريين يرون أن أمازيغ المنطقة المغاربية قد عرفوا المسرح منذ عهود الرومان والقرطاجنيين. هنا في هذا المقال نظرة على المسرح الأمازيغي ونشأته قديما وتجليات نشاطه حاليا.

أزراج عمر
كاتب جزائري

لو عدنا إلى الماضي البعيد، فإن هناك من يذهب إلى القول إن الملك الأمازيغي يوبا الثاني المولود في نهايات القرن الأخير لما قبل الميلاد، والذي تزوج من كليوباترا سيليني ابنة ملكة مصر كليوباترا وأنجبت له العالم والمفكر والرياضي الشهير بطليموس، قد ألّف كتابا عن تاريخ المسرح مما يعني أن فكرة المسرح كفن لم تكن غائبة عن الأمازيغ. ولكن هذا الكتاب غير متوفر كنص قائم بذاته ولا توجد مراجع موثوق بها تتضمن مقتطفات منه على الأقل.

> هل اللغة وحدها من يحدد هوية انتماء النص المسرحي أم أن مضمونه يلعب دورا أيضا في تحديد الانتماء إلى هذه الهوية أو تلك

رغم هذه الإشارة وغيرها إلى قدم المسرح الأمازيغي فإن الاستعمار المتعدد الذي عرفته المنطقة المغاربية قد ساهم في تهميش هذا الشكل الفني بالجزائر بشكل خاص، وأدى ذلك إلى تعطيل الثقافة الأمازيغية بشكل عام.

انبعاث ثقافي

في بدايات مرحلة الاستقلال الوطني الجزائري بدأ المسرح باللغة الأمازيغية يظهر هنا وهناك رويدا رويدا رغم الحصار الذي ضربه في ذلك الوقت النظام الجزائري على الهوية الثقافية الأمازيغية، وبرز أكثر بعد انفجار ما يسمى بالربيع البربري (الأمازيغي) الذي أعاد الثقافة واللغة الأمازيغيتين إلى الفضاء السياسي والاجتماعي بقوة.

ولقد تمخضت عن مرحلة التعددية الحزبية التي بدأت تتشكل بدءا من ثمانينات القرن الماضي في الجزائر جمعيات ثقافية باللغة العربية وأخرى بالأمازيغية، وهي في الغالب تابعة للمجتمع المدني في طوره الأوّلي البسيط.

ومن الواضح أنه في ظل تلك المرحلة قد تشكلت في الأرياف وفي المدن مجموعات وفرق مسرحية، الأمر الذي وفّر مناخا إيجابيا جزئيا للنشاط المسرحي الأمازيغي في الجزائر رغم مختلف أشكال العراقيل التي وضعت أمام المسرحيين الأمازيغ في الماضي القريب. في هذا السياق قال المخرج المسرحي الجزائري عمر فطموش في حواره مع سارة بوعياد إن "المسرح الأمازيغي ولد من رحم الألم، وصار مسرح المواجهة بعدما كانت بداياته لا تخلو من عنصر الاحتفالية الذي يمكن أن ندرجه في ما نسميه بالنشاط المسرحي"، و"انتقل بعدها المسرح الأمازيغي الذي كان يكسوه نمط الفلكلورية والتراث المقحم في الديكور ومناقشة قضايا تواجه السلطة مباشرة، نحو الاحترافية بعيدا عن الشعارات إلى مناقشة القضايا الكبرى".

وفي الواقع، فإن مفهوم المسرح الأمازيغي في الجزائر لا ينفصل عن الانشغال بمحددات الهوية الثقافية الجزائرية الكلية، ومكانة الهوية الأمازيغية. وعلى ضوء هذا نجد بعض نقاد المسرح في الجزائر، يدعون إلى التمييز بين المسرح الأمازيغي وبين المسرح الناطق باللغة الأمازيغية، ومن بين هؤلاء الدارس مفتاح مخلوف. غير أن هذا التمييز الذي يدعو إليه هذا الدارس يحتاج فعلا إلى تدقيق وتمحيص بقصد إزالة اللبس عنه.

وفي الواقع فإن هذا الدارس ليس وحده المهموم بقضية هوية المسرح الأمازيغي، بل هناك عدد متزايد من الدارسين والدارسات والإعلاميين والإعلاميات المتخصصين في متابعة تطورات المهرجانات المسرحية الوطنية، ومنها مهرجانات المسرح الناطق باللغة الأمازيغية.

الدارسة أسماء حمبلي، مثلا، ناقشت في الصحافة الجزائرية بعد الهوية في المسرح الناطق بالأمازيغية وبلورت فرضية مفادها أن اللغة الأمازيغية "استطاعت أن تخرج من كونها لغة يتمّ تداولها في الحياة اليومية فقط إلى لغة إبداع، بما في ذلك المسرح على اعتبار أنه أبو الفنون، فالأمازيغية استطاعت أن تدخل هذا الفن خاصة في الفترة الأخيرة التي أصبحنا نشاهد فيها عددا مهما من الأعمال المسرحية بهذه اللغة، ما مكنها من أن تظهر خصوصيتها".

تمازج الهويتين

أما الإعلامية س. أم الخير فترى أن "مشاركة الفرق القبائلية بعروض مسرحية متميزة باللغة الأمازيغية أمر يعكس بشدة إلحاح هذه الفئة من الفنانين الجزائريين على نضالاتها المستميتة للحفاظ على هوية المنطقة سواء في المحافل الوطنية أو الدولية. لكن ماذا عن حاجز اللغة الذي ينهار أمام هيبة أب الفنون ويُخرس مخارج النطق أمام تعابير الإيحاء الفني والحركات الجمالية؟"، ثم تستنتج فترى أن تحمل "مشقة ترجمة النصوص المقتبسة من الأدب العالمي إلى اللغة الأمازيغية هي رغبة من الأمازيغ في فرض لغتهم كلغة عالمية وليست لغة وطنية رسمية فحسب".

وفي هذا الخصوص ينبغي طرح السؤال التالي: هل اللغة وحدها من يحدد هوية انتماء النص المسرحي أم أن مضمونه يلعب دورا أيضا في تحديد الانتماء إلى هذه الهوية أو تلك؟ ظاهريا يبدو أن المقصود بالمسرح الأمازيغي هو تلك المسرحيات الناطقة بالأمازيغية، ولكن هناك من يرى أن المسرحيات الناطقة بالعربية قد تكون أمازيغية الهوية، لأن مبدعيها قد يكونون من الأمازيغ الذين فضلوا استخدام اللغة العربية من دون أن يقضي هذا الاستعمال للغة العربية الدارجة أو الفصحى على الحساسية الأمازيغية، أو على المضامين ذات الطابع الأمازيغي. هذا من جهة ومن جهة أخرى قد تكون مضامين هذه المسرحيات الناطقة بالعربية معبرة عن قواسم الهوية الوطنية الجزائرية الكلية والمشتركة التي تتناصّ فيها عناصر البعد العربي مع البعد الأمازيغي، المترابطين حينا والمتوازيين أو المتجاورين حينا آخر. وفي هذا السياق يبرز السؤال عما إذا كان اختلاف اللغة (لأمازيغية أو العربية) في مجتمع له نسيج مختلط ومتنوع ومتبادل التأثير هو الذي يحدّد سلفا هوية انتماء هذه المسرحية إلى البعد الأمازيغي المحض أو إلى البعد العربي المحض؟

ولا شك أن الباحثة روزلين ليلى قريش قد أثارت حين صدور كتابها "القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي" قضية سجالية باقتفائها تأثير التراث السردي الشعبي العربي في نسيج السرديات الشعبية، بما في ذلك سرديات الفولكلور الأمازيغي، ولكنها لم تبحث في تأثير السرديات الأمازيغية في القصة الشعبية العربية.

مسرح يبحث في الهوية

تراجيديا الزير سالم مازالت تتكرر إلى اليوم

ما تزال التراجيديات تستهوي الفنانين والمبدعين في شتى أرجاء العالم، فالتراجيديا ترافق البشر منذ فجر الوعي إلى اليوم، وستواصل مرافقتهم في حياتهم المشوبة بالتقلب تواريخهم التي يكتبها الدم والصراخ والحروب التي تلازم البشر وكأنها قدر.

نضال قوشحة
كاتب سوري

دمشق – تقوم التراجيديا المسرحية على استحضار شخصية نبيلة تعاني مخاطر الألم والخوف والقسوة والحرمان، وعادة ما تملأ تفاصيل العرض المسرحي حينها مشاهد القتال والدماء.

عشرات القرون مرت منذ أن قعّد التراجيديا مؤسسوها كشكل فني، وهم الثلاثي اليوناني يوربيدوس وأسخيلوس وسوفوكليس، لكن مازال هذا الفن يحفل بالكثير من المتابعة والاهتمام، فظهرت عبر تاريخ المسرح العالمي الكثير من المسرحيات التراجيدية منها أوديب ملكا، أنتيغون، يوليوس قيصر، هاملت، ماكبث، روميو وجولييت وغيرها.

وكما في تلك المسرحيات الخالدة تحضر عوالم التراجيديا في ملحمة الزير سالم (أبو ليلى المهلهل) التي ذاع صيتها في العالم العربي، وتم تداولها شعرا وغناء عبر الكتب والمسامع منذ ما يقارب الألف وخمسمئة عام.

تدور أحداث الملحمة في شبه جزيرة العرب بين اليمن والشام مرورا بالحجاز ونجد ووصولا إلى العراق، عندما قام الملك حسان التبّع اليماني بغزو ديار الملك كليب من بني تغلب في الحجاز طلبا للزواج من جليلة الفتاة الحسناء التي أراد أن يأخذها عنوة في ليلة زفافها من زوجها كليب، والذي استطاع بحيلة ذكية قتله بمساعدة أصحابه ومن ثم الاستيلاء على عرشه، الأمر الذي دفع بشقيقته البسوس لطلب الثأر له وإيقاع المكيدة بين كليب قاتل شقيقها وجساس ابن عمه ودفع الأخير لقتله.

بعد هذه الحادثة احتدم الغضب بين تغلب وبكر واندلعت الحرب بينهما في ما عرف بحرب البسوس التي قادها الزير سالم شقيق كليب من تغلب ضد جساس بن مرة من بكر، وذهب ضحيتها عبر عشرات السنين آلاف القتلى.

وتحضر في الملحمة قصة سالم الذي سمّاه شقيقه كليبا بالزير لأنه يجالس النساء ويلهو معهن، واسمه عديّ بن ربيعة، ويلقّب بأبي ليلى نسبة إلى ابنته الكبرى كونه لا ذكور له من صلبه. وهو الفارس الذي ترك الخمر واللهو طلبا لثأر شقيقه كليب. وفي المقابل نجد ابن عمه جساس بن مرة الطامح للملك والعرش. مكامن التشويق الدرامي موجودة بكل تفاصيلها في الحكاية فالتوتر بين شخصيتي كليب وجساس متواصل وكذلك حالة الخيلاء والغرور عند حسان النقع ملك اليمانية.

في استحضار للحالة الراهنة سوريّا وعربيّا يلج العرض المسرحي الذي قدمه طلاب السنة الرابعة في المعهد العالي للفنون المسرحية بدمشق عوالم سيرة بني بكر وتغلب والصراع الذي قام بين أبناء العمومة على العرش والرغبة في التحكم بالآخرين.

حسن عويتي، الفنان الشهير والمدرّس بالمعهد العالي للفنون المسرحية، قام بإعداد العرض عن نص الكاتب المصري ألفريد فرج الذي وضعه في أواخر ستينات القرن الماضي، ولكي يتيح الفرصة لجميع طلاب الدفعة البالغ عددهم أربعة عشر طالبا وطالبة استعان بالنص التلفزيوني الذي ألفه الكاتب السوري ممدوح عدوان حول حكاية الزير سالم عام 2000 وصار مسلسلا تلفزيونيا معروفا من إخراج حاتم علي.

وكعادة عروض التخرج حيث يسلتزم الأمر إعطاء أكبر مساحة ممكنة لجميع الطلاب لإبراز مقدراتهم كانت مدة العرض طويلة فقاربت الثلاث ساعات قدمت في دار الأسد للثقافة والفنون بدمشق.

تراجيديا عربية مازالت حية

تلقف العرض حالة الدراما المأساوية الموجودة في النص وصاغ منها مجموعة من الصراعات الدموية التي سارت في حالة تصاعدية حتى بلغت ذرى فيها الكثير من القسوة والعنف. فالصراع على العرش بين أبناء العمومة يظهر في أوضح تجلياته وكذلك روح الضغينة التي تجمع بين كليب وجساس ولاحقا بين سالم وجساس.

ولا تغيب محاور الحب عن العرض في عدة تقاطعات درامية تعيشها بعض شخوص المسرحية. وصولا إلى الفكرة النهائية للعرض التي تمثلت في شخصية الهجرس بن كليب، الذي وجد شقيقته المطالبة بثأر أبيها آخيرا، وهو الصوت الذي يؤمن بالعقل والهدوء في معالجة وقائع الأيام بل ويرفض مقابلة العنف بالعنف ويرفض حالة الثأر بالثأر ويمثل في العرض والحياة صوت الحكمة الذي لا يستهوي الكثيرين صداه.

في الشكل، قدم العرض حالة حيوية متدفقة فيها الكثير من الحركة، حتى أنه يتغلب على طول فترته الزمنية وقسوة أحداثه وتداخلها، فبنى صيغة متحركة شملت كل مفاصله، فظهرت لوحات كبيرة كانت عبارة عن شاشات بيضاء تم استخدامها لعكس ظلال الممثلين في تقديم المعارك كما كانت تتحرك بشكل دائري على المنصة لتعبّر عن حالة التكرار والإحاطة بشتى مفاصل الحياة حيث يستسلم لها الجميع.

وبالتوازي مع هذه اللوحات البيضاء ومن خلال فكرة لافتة قدمت مجموعة من اللوحات السوداء الشفافة الأصغر حجما التي ظهر الممثلون من ورائها بأجسادهم وأصواتهم وهم يقدمون الحالات الدرامية لشخوصهم، وكأنهم لوحات سوداء من الحياة كانت وما زالت تقدم إلى الآن. كل اللوحات في العرض كانت متحركة تحت قبة معدنية حملت دلالات الحصار النفسي والتكرار الزمني.

> العرض تلقف حالة الدراما المأساوية الموجودة في النص وصاغ منها مجموعة من الصراعات التي سارت تصاعديا

وقدّم العرض وسط ترحاب من جمهور المسرح الذي لم يلغ حماسه أن النص يتحدث عن تراجيديا عربية قديمة في عرض طويل زمنيا. شارك في تقديمه الطلاب الخريجون: إلين عيسى، إياد عيسى، آية محمود، حسن خليل، حسناء سالم، دُجانة عيسى، راما زين العابدين، ريموندا عبود، علاء زهرالدين، علي إسماعيل، كنان حاتم، ملهم بشر، يزن الريشاني، يوشع محمود.

وساهم فيه كل من أحمد حمودة، آدم الشامي، آية آغا، جول لباد، غيث الأدهمي، فارس جنيد، فوز عليا، كرم شنان، كنان كريدي، لانا الحلبي، ميخائيل صليبي.

وقدم سينوغرافيا العرض غيث المحمود وغيث مرزوقي، فيما كان تصميم الأزياء لسهى حيدر، والإضاءة لأوس رستم وجواد أبوكرم. أما الماكياج فمن إنجاز منوّر عقّاد.